جبان

للقصصى الفرنسى دى موباسان

بقلم السيد محمد العزاوى

كان المجتمع يكنّيه « بسنيول الجميل » . أما اسمه فكان الفيكونت جونتران جوزيف دى سنيول

وقد يسر له غناه وتيمه أن يعيش عيشة ضاحكة راضية ... كان له أسلوب وشخصية . وله فى اللسان طلاقة توهم الناس بأنه على حظ من التوفيق عظيم . كانت له عزة وأنفة ، ووداعة يوحى بها طرفه العف ؛ وجرأة يتم بها شاربه الصغير . وداعته تكلف بها النساء ، وتعشق حسنه الغيد الحسان .

كانت « الأبهاء » تجد فى طلبه ، والراقصات الغيد يقفون أثره ، وتنشدنه أنى يجلس أو يرقص ، فكان بذلك يثير على شفاه الرجال بسمة طالما ترفرف عليها حين يمر بهم فتى جميل وسيم ، وبأفئدتهم تهماً بعلائق عدة ، لا تليق إلا بأعزب مثله على مثل حظه من غنى وجمال . كان يحيا باسماً حراً يضحي فى نعيم وغبطة ، ويمسى فى بلهنية وخلو بال ؛ وكان فوق ذلك مبارزاً جباراً طوق الآفق سمعه ؛ يحارب بكل سلاح ، وبخاصة المسدس ، فهو به أشد على الغريم وأعتى . وكثيراً ما قال « إن كان لا بد من النزال فانى أخو الرصاص ، لأنى به على خصمى قوى مكين »

وفى إحدى الأماسى اصطحب صديقتين إلى مسرح واصطحب معهما زوجيهما . وبعد أن انتهى التمثيل دعاهم إلى مشرب « تورتونى » ليتناولوا بعض مرطبات . ولم يلبثوا فى المشرب إلا قليلاً حتى أخذ أحد الجلساء يحدق فى وجه إحدى ضيفتيه بوقاحة وشره . وبدا على وجه الغادة قلق واضطراب فغضت من بصرها ، ونادت زوجها :

— إن هذا الرجل ليحدق فى وجهى . وإنى أجهله ، فهل تعرفه ؟

فصعّد الزوج الغافل فيه نظرة وأجابها . ثم قال : « كلا . فأنا لم أره يوماً . »

فقالت الزوجة باسمة ضجرة :

— ليس هذا بجميل ، فهو يكاد يلتهمنى ويفسد علىّ ما آكل

فهز الزوج كتفيه ثم قال :

— إن كان علينا أن نهتم بمن نلقى من الأراذل فسوف لا نسر ولا نهدأ ، لا تراعي ولا تاقى له بالاً ...

ولكن سنيول لم يستطع على هذا صبراً ، فما يهون عليه أن يضايقهم دخيل غريب وما اعتاد أن ترمى إهانة فى وجهه عمداً وإصراراً ، إن الغريب يضايقه هو لا هي لأنه المضيف ، إذن فالاهانة تلحقه دون سواه ، فوثب إلى الرجل قائلا :

— أيها السيد : إنك تحدق فيهما بعين لا تدرك

للذوق معنى ، وإنى لا أطيق عليك صبراً ، فلطف من شراهتك ، واغضض من بصرك !

فما لبث الأجنبى أن قال :

— ألا فاذهب إلى الشيطان !

فزجر الفيكونت :

— حذار أيها السيد ! وإلا فأنت دافعي إلى أن أتعدى حدود الأدب

ولم يجب السيد إلا بكلمة هازلة ماجنة ، ردد المشرب صداها ، وجعلت كل فرد يثب وثوبا ، فاستدار من ولاها ظهره ، واشرأبت رؤوس النازلين واستوقفت ثلاثة خدم ، ثم جعلت سيدتين تثبان عن متكأيهما كأنما لولبان واثبان

وأعقب ذلك سكون عميق ، شقه صوت حاد ، إذ صفع الفيكونت الرجل يبلغه دعوة المبارزة ... وتدخل الناس فى الأمر ، وتبادل الطرفان بطاقتين

وما عاد الفيكونت إلى بيته حتى جد فى ذرع الأرض جيئة وذهابا . لم يكن يفكر فى أمر على حدة لأنه كان مضطربا ... ولكن ثمة فكرة كانت تحوم على ذهنه وهى « المبارزة : المبارزة » ولم تثر الفكرة شيئاً فى نفسه ، فقد ألفها وأحبها . حقاً إنه عمل ما حق أن يعمل ؛ وقد ظهر بما يجب أن يظهر به فيكونت عظيم . سوف يتحدث الناس عنه ، ويؤيدون سلوكه وفعله . ثم يلقونه فرحين مهنئين ... وصاح محدثاً نفسه ككل من ضاق صدره ، وشغل ذهنه بأمره :

— أى وحش كان الرجل !

ثم جلس وطفق يقدر ويفكر ... إذن لا بد له من اختيار وكيلين مع الصبح ، فمن يختار ؟ ومن ينتق ؟ لقد فكر فى أصدقائه الذين ينعمون بين الناس بسمع كريم . فاصطفى من بينهم « بوردين » القائد والمركيز دى لاتوار نوار . لقد انتقى قائداً وشريفاً . إن هذا لعظيم ! ولسوف تقع أسماؤهما فى الصحف موقعاً ما أجمله وأحسنه ... وأحس بأنه ظمآن ، فشرب من الماء شرب الهيم ؛ ثم تابع التدرع والتفكير ... وأنس من نفسه بطشاً وقوة . فلو أنه تعاظم واشتط كأن يبدي رغبته فى إبلاغ الأمر نهايته ، ويطلب شروطاً صارمة قاسية ؛ أو يصر على نزال عنيف ، إذن لتخاذل غريمه ولرد البطاقة ثم اعتذر

واختطف البطاقة — بعد أن جذبها من جيبه ورماها على النضد — فقرأها مثلما قرأها فى المشرب أول مرة ، وكما قرأها في العربة حين العودة مرة أخرى ؛ ومثلما قرأها على ضوء كل مصباح منير :

« جورج لاميل ، ٥١ شارع مونسى »

وعاد يمتحن الحروف ؛ لقد تراءت له غريبة غامضة فى ثناياها معنى مبهم أجوف : جورج لاميل ! من هو ؟ وماهى حرفته ؟ وما كان يبغي من التحديق فى الغادة ؟ وأعاد سنيول تعجبه « أى وحش ! »

إنه الآن يقف جامداً كالصنم لا تسمع له نأمة ، ولا يختلج له عضل ، وعيناه مثبتتان على البطاقة ... إنه يفكر ... وتمكن من قياده غضب جموح ، وقلق عظيم ... أى جنون قد أتاه وأى فعل قدمه ؟ وتمكن منه كره للبطاقة وصاحبها . فأمسك بمدية ماضية وقد

بها البطاقة فى صميم الذى تحمل ، كأنما هو يطعن غريمه

إذن فلابد لى أخيراً من النزال ؟ : أأختار الرصاص أم السيف ؟

إذن فقد اعتبر نفسه الطرف المهان . إنه يخاطر إذا ما اختار السيف . ولكنه موقن بانسحاب غريمه إن كان الرصاص . إن مبارزة بالسيوف قلما كانت شافية حاسمة . إذ فى مقدور المتنازلين أن يتحاشيا الطعنات القاتلة بشىء من حذر وسرعة ، ولكن الرصاص كان على الغريمين بلاء . فهو رهان بالحياة والأمانى جميعاً . فغالب أو مغلوب ، وإن كنت الثانى فبئست النوكسة وسوء المآب ، أو الأول فثم نصر وفخار

— لأكن حازماً جباراً ، كى يخاف ويخشى .

ولكنه ارتجف إذ سمع صوتا من حوله . فالتفت عن يمين ويسار . لقد استشعر خوفاً وهلعاً . فاجترع كوباً من ماء ؛ وطفق يخلع رداءه متأهباً للنوم . ووثب إلى السرير ، فأطفأ المصباح ، فأغمض أجفانه ، وراح فى فكر عميق

— إن غدى طول الغد أرتب فيه شأنى فلأنم الآن حتى أصبح قوياً نشيطاً

وآنس الدفء بين طوايا الفراش الوثير . ولكنه ما استطاع أن يهجع قليلاً أو كثيراً . إذ كان يتثنى ويتقلب ، فينام على ظهره فترة ، وينقلب إلى عطفه الأيمن : فلا يلبث إلا رد الطرف حتى يفزع إلى الأيسر . ولج به العطش فقام يشرب . وإذ ذاك طرقته فكرة متعبة :

— أيمكن أن أكون خائفاً ؟

لم يقفز قلبه هلعاً من أى صوت ينبعث ؟ حتى من صوت الساعة إذا حان دقها — كانت حالة سيئة بائسة — وبدأ يحاور نفسه فى ذلك الأمر : أصحيح أن بى خوفاً وفزعاً ؟ كلا : إنه ليس بخائف ولا مخلوع القلب . فما عهده بقلبه إلا شجاعاً لا يخاف ولا يوجل ولكن ماله يحس بقلق مغير ؟ أيمكن أن يخاف المرء رغماً عنه وقهراً ؟

وتمكن هذا الشك من نفسه ، وانصب هذا الريب فى قلبه . ماذا يحدث لو غلبته على أمره قوة قاهرة أشد منه صلابة ومراساً ؟ نعم ماذا يحدث ؟

لا مناص له من النزال ولا محيص ؛ ذلك بأنه هو الذى رغب النزال وأكده . لنفرض أن يده ترددت فاهتزت . أو لنفرض أنه راح فى نوبة إغماء . أى بؤس إذن وأى شقاء ! أي ذكر يطيح وأى مجد يزول !

ولجت به إحدى الفكر أن يرى وجهه فى المرآة فلباها ، ووقف لدى المرآة ثم أضاء المصباح ، فأنكر خياله ؛ إذ يرى شخصاً غريباً لا عهد له به ، أشعث الشعر مرتعد الشفاه . أصفر الوجه كثير التعضون

وطرقته وهو أمام المرآة — فجاءة — فكرة عصفت به عصف الريح العاتية :

— ربما كنت قتيلاً فى مثل هذا الوقت من بعد غد !

واختلج قلبه لذلك حينا وجفل ...

— ماذا ؟ ربما كنت فى مثل الساعة من بعد غد قتيلاً : ! ذلك الخيال ! خيالى الذى أرى ... ماثلاً بين يدى ... بعد حين لا يكون : ! أأقف هنا —

أمام المرآة — موقناً بحياتي ووجودي وبعد أربع وعشرين ساعة أكون منطرحاً على الفراش قتيلاً ؟ جثة باردة لاحياة فيّ ولا حراك ؟ ! وتبقى عيناي مسبلتين أبداً لاتنفرجان لترى الدنيا وبهجتها ! ؟

والتفت إلى السرير ، وتصور نفسه وهو على الفراش مسجى ، يضمه السرير وتحضنه الأغطية . ثم عاود النظر فى المرآة . فألفى خدّيه يغوران كما غارت خدود الموتى ، ويديه معروقتين لاتلبثان على حال

وشعر حينذاك بخوف من السرير شديد . ودّ لو لم ير السرير من قبل أو يذق به طعم الكرى . ثم دخل حجرة التدخين كيلا يبصره وأشعل لنفسه سيجاراً دون وعى منه ، وجد فى ذرع البساط مراراً . لقد كان بارد الأعطاف مختل القوى ، فسار نحو الجرس ليوقظ خادمه ولكنه امتنع فى نصف المسافة قائلاً :

— سيدرك خوفى ذلك الخادم

ولم يقرع الجرس ، بل أضرم لنفسه النار بيده وكانت يداه ترتجف إذ هى تلمس الأشياء جميعاً ، كم عصفت برأسه العواصف ! وتلونت أفكاره الوجلى بلون الحزن والسواد ، بل رانت على فؤاده غشية كأنها غشية المخمور ... وكان يسائل نفسه بلا انقطاع :

— والآن ماذا أفعل ؟ والآن ماذا أفعل ؟

وارتعدت لذاك فرائصه ، وارتهكت مفاصله فانتفض وعدا نحو النافذة فأزاح عنها الستائر والحجب . لقد تنفس الفجر ، وأشرق يوم جميل صائف ... كانت السماء الدامية تعكس على الأفق والمنازل لونها الذهبي فتكسب الجو جمالاً ورقة وأرسلت ذكاء فوجا من نورها يحضن الكون ، ويهبه فيضا من يقظة وحياة ، وأرسل إلى الفيكونت التعس قبساً من أمل ... أهو مجنون حتى يبيح للخوف أن ينصب فى قلبه ويفسد عليه نفسه وهو بعد لايدرى هل قابل وكيلاه وكيلى جورج لاميل فكتب عليهما القتال ، أم يجد الله له من كل ذلك مخرجاً ؟

وأخيراً قام ، فارتدى ثيابه ، فترك الدار بعزم جديد وكثيراً ماردد فى نفسه أثناء سيره :

— علىّ أن أكون حازماً ... حازماً جهد الحزم ! لأثبتن إنى على البلاء قوى مكين ...

وجاءه وكيلاه ، فلما سلما جلسا يبحثان الشروط فقال القائد :

— أتود أن يكون النزال صارماً ؟

— صارماً جباراً

— وما زلت تصر على الرصاص ؟

— نعم !

— أتدعنا نرتب لك باقى الأمر ؟

فأجابه الفيكونت فى صوت جاف خفيض :

— عشرون خطوة ... إطلاق الرصاص لدى الاشارة ... رفع الذراع بدلا من خفضه ... تبادل الطلقات حتى يجرح أحدنا جرحاً بليغاً ...

— شروط جيدة ... وإنك لمن خير الرماة ؛ وإنك لعلى حظ عظيم .

ولما افترقوا عاد سنيول إلى بيته مرة أخرى : وكانت حاله تزداد سوءاً كل حين . فقد كان يستشعر رِعْدة تتمشى فى ساقيه وزنديه وفى صدره . ولم يكن يستريح إلى جلوس أو رقاد . وكان يدير لسانه فى شدقيه من حين لآخر ثم يمر به سريعاً

على شفتيه ليزيل ما علاهما من زبد الخوف والوجل

وقد حاول أن يفطر فلم يستسغ طعما . وسنح له أن يشرب ليجدد قواه الخائرة ، فاجترع ستة من الأكواب الصغيرة بعضها يكسع بعضاً فأنس الدفء في جسمه وصفت روحه

— هذا حسن ! لقد عثرت على الطريق !

ولكنه أفرغ الزجاجة فيما يقرب من الساعة ، وحاله لما تهدأ ولم يقر بها قرار ؛ وأحس برغبة جامحة تلح عليه أن يتمرغ في الأرض ويعضها ثم يبكي !!

وطوى الليل النهار

ودق وكيلاه الجرس ، وكانت دقة الجرس هذه كفيلة بأن تثبته على السرير هلوعاً جزوعاً لا يستطيع حراكا ولا قولا ، فلم يقدر على السلام ولا التحية ، بل لم يجرؤ ، خشية أن يعرفوا من رجفة الصوت حاله ، وقال القائد :

— لقد تم كل شيء حسبما تريد وترتضي فقد كان غريمك يقول بأنه الطرف المهان

ولكن سرعان ما أقلع عن هذا ورضي الشروط القاسية ؛ ووكيلاه رجلان من رجال الجيش

— شكراً لكما

واعتذر المركيز قائلا : « أتسمح لنا بالخروج لترتب الأمور الباقية ، فلا يزال أمامنا أن نأتي بطبيب ، فأنت تعلم أن الرصاص ليس من الأمور الهينة ، وأن نبحث عن حومة النزال متوخين فيها القرب من البيوت العامرة ، ليتسنى لنا نقل الجريح لو دعت الحال »

ونجح الفيكونت في أن يقول مرة أخرى : « شكراً لكما »

وعاد القائد يسأله :

— أأنت على ما تحب من الهدوء ؟

— نعم ! أشكرك !

وانسحب الرجلان على الأثر

ولما جنه السكون مرة أخرى ظن أنه مجنون ... وأخيراً جلس إلى مكتبه يخط بعض الرسائل ، وادّكر فهمّ يخط وصية فلم يزد على قوله : « ألا إن تلك رغبتي ... » حتى قفز عن المكتب مؤمناً بأنه لا يقوى على ربط فكرتين معاً ، ولا يستطيع تقرير شيء مهما صغر ، أو الاجابة على سؤال مهما قل

إذن فلامناص له من النزال . لقد أضحى اجتنابه فوت يده ... إنه يريد النزال مصراً عليه ، ولكنه يعلم بأنه على رغم جهود ذهنه وعزم إرادته لن يستطيع أن يحتفظ بقواه الكاملة ؛ أو حتى بقواه التي تحمله إلى حومة النزال ... وحاول أن يتصور المبارزة وكيف يدخلها فيؤديها فيخرج منها . أيخرج جريحاً طريحاً أم يخرج سليما فخوراً ؟ ... وكانت أسنانه تصطك من حين لآخر ... وأراد القراءة فأمسك بقانون شاتو فيللار المدني ولكنه عاد يسائل نفسه :

— أغشى غريمي حلبات النزال كثيراً ؟ وهل هو معروف ؟ ومن أي الطبقات هو ؟ من لي بكل هذا ؟

وادكر إذ ذاك كتاب البارون دي فوكس عن مشاهير الرماة . أتى به وتصفحه ورقة ورقة ولم يكن به اسم ذلك الچورج لاميل . على أنه لو لم يكن من خير الرماة لما قبل الشروط القاسية ، ووافق على السلاح الخطر . وكان بقرب المكتب فأخرج من درجه مسدسه الكبير ، ورفع يده كمن يسدده إلى هدف بعيد ، ولكنه كان يرتجف من فرعه لأخمص قدمه . لو استمر على تلك الحال لخسر الدنيا والآخرة فلاهو منصور ولا هو خالد : وقال في نفسه : « إن هذا مستحيل ! لا أستطيع النزال » وأمسك بالمسدس يفحصه ويخبره ... حدق ملياً في فوهته العميقة تلك التي تقذف الموت الأحمر لمن يريد ومن

لا يريد ... وازدحمت حينذاك برأسه الأفكار ... فكر في عاره إذا غلب على أمره فهو جريح أو قتيل ... فكر في لغط النوادي وهمس الصحاب وغمز العيون. وفي سخرية الصالونات ... وفي بسمات الهزء ايماءة الرؤوس ... وطفق يصور ما سوف يجسر على قوله الجبناء ... وماسوف تكتبه الصحف ... وما سوف تقوله الغيد الحسان ...

وظل محدقاً في فوهة السلاح مدة . ثم دفع «سلم الأمان» إلى الأمام استعداداً للعمل ، ولم يكن يرى ضرورة لحشوه ؛ فقد كان موقناً بأن ما به من الرصاص يكفي

وأحس بفرح مضطرب يغمره ويغمر فؤاده الرعديد ...

حقاً إنه لو أفلح في فرض الرهبة على قلب الغريم فقد فاز فوزاً عظيما . وإلا فقد ضاع ضياعاً مبيناً . ذلك بأن الهزؤ يلاحقه . والنوادي تلفظه ، والمحافل ترفضه ، والغواني تبغضه ... كان يحس بكل ذلك ، ولكنه لم يكن يملك لنفسه من غريمها شيئاً . ومع ذلك فقد كان نبيلاً شجاعاً لأنه يريد النزال ويطلبه . لقد كان نبيلا شجاعا لأنه ...

لم تكن تلك الفكرة التي استولت على ذهنه لتكمل ... ففغر فاه ، وصوب بفوهة السلاح إلى فيه ، ثم ضغط على الزناد فخر قتيلاً يتشحط في الدماء القانية

وأهرع خادمه إليه حين سمع الدوي فألفاه لدى الباب قتيلا ، وألفى الدم قد سال منه على ورقة فوق النضد . فقد كانت بيضاء كتب بأعلاها :

« ألا إن تلك رغبتي ... ... »

سيد محمد العزاوي

علمكم المصرى يرفرف على
النيل و كوثر
فهما رمزا بلادكم
سافروا عليهما تجدوا راحتكم المنشودة
غرف فاخرة .. طعام شهى .. خدمة كاملة
اتصلوا بشركة مصر للسياحة
شارع ابراهيم باشا رقم ٤٩